

الصلات الأدبية والعلمية

بين مصر والعراق

للدكتور زكي مبارك

عواطف نبيلة

وقيل أن أسواق الأسئلة والأجوبة أذكر أن الدكتور الجمالي أقام برهاناً جديداً على أصالة الأريحية العراقية ، فكان اهتمامه عند حضوره مقصوداً على زيارة الرجال الذين تشرفوا بخدمة العلم في العراق ، فزار الأستاذ محمد عبد العزيز سعيد « أول أستاذ مصري قدم للعراق ، ونظم دار المعلمين ، وكان الدكتور الجمالي من أوائل تلاميذه في سنة ١٩١٨ » وزار الدكتور المشهور الذي رفع القواعد من كلية الحقوق العراقية ؛ وسأل عن الأستاذ الزيات بلهفة وشوق فلم أنه بعيد عن القاهرة ، وتفضل فزارني في سنتريس ليرى البلد الذي قال فيه الشاعر عبد الرحمن البتاء :
لُبعْدك كابتت بغدادُ حزنًا وإن فرحت بقربك سنتريسُ
وإن أنسى أبدأ أن الأسابيع التي قضاها الدكتور الجمالي في مصر كانت عندي من المواسم الروحية ، فقد كان يسألني في كل يوم ، كاه رب البيت وكأنني الضيف

أنت بفرار واللقاب

واتصلت أيام الدكتور الجمالي عندنا بفكاهات كثيرة كان يوجهها إلى ألقاب وزارة المعارف من وقت إلى وقت ، منها السؤال الذي واجهني به سعادة الأستاذ شفيق بك خريال :
— سمعت أنك لم تُنصب بأخت بغداد ، فهل هذا صحيح ؟
— أصيبت بالأخت الحقيقية لهناد ، وهي « ليل الربيعة في العراق » وفي هذه الإصابة مناعة من جميع اللعل والأدواء .
وفي إحدى سهراتنا أعلن الدكتور الجمالي ثورته على كثرة الألقاب في مصر ، فأجبت بأن الحال في مصر غير الحال في العراق ، فالظاهر أن الألقاب كانت تُشتري بأجنس الأعمان فيظفر بها من لا يمتحنون للتبجيل ، ولهذا نأر عليها العراقيون ؛ ولا كذلك الحال في مصر ، فالألقاب عندنا لا يفالها من ليس لها بأهل ، وإن كان في النحو باب يسمى باب الاستثناء وأردت أن أنتقم من الدكتور الجمالي فكنت أخاطبه ببسابة : يا فاضل بك ؛ فلم يعض إلا وقت قليل حتى استأنس بلقب البكوية كل الاستثناس ، إلى الحد الذي سمح له بأن يسأل من حظي من الألقاب الرسمية بمهارة تفيض بالمطف . وقد تمزق حين أجيبه بأن الألقاب لا تمنح للموظفين إلا حين تصل مرتباتهم

ففي سعادة الدكتور محمد فاضل الجمالي في مصر نحو شهرين كان فيهما موضع الحفاوة والترحاب من أكابر المصريين ، فالتفتت الأذهان من جديد إلى وجوب توكيد الصلات الأدبية والعلمية بين مصر والعراق . ويزيد في أهمية هذا الالتفات وجهة النرض الذي حضر لتحقيقه هذا المرئي الفضال ، فقد جاء يستحث المدرسين المصريين إلى المشاركة بالتوجه بخدمة العلم في المدارس العراقية ، وعدوم في هذه المرة كثير جداً بحيث يكفي لتوكيد تلك الصلات إن أدرك جميع هؤلاء المدرسين أنهم سفراء مودة وإخلاص ؛ والمأمول أن يدركوا هذا المعنى أتم الإدراك بفضل ما سيلقون في بلاد الرافدين من الإغزاز والتبجيل . أسبغ الله عليهم أبواب العافية ، وجعل للتوفيق حليقم في جميع الشؤون !

أما بعد فوضوع هنا للقال مستوحى من زيارة الدكتور الجمالي ، وقد كان يجب أن نتحدث عنه في « الرسالة » قبل اليوم ، لأنه لم يزر مصر إلا موقفاً لهمة من أشرف المهام ، وكان ذلك يوجب أن نتحدث عن قدومه ولو بمهارة وجيزة في البريد الأدبي ، ولكن الدكتور الجمالي نفسه هو سبب ما وقع من السكوت ، فقد بدا لي أن أوجه إليه طائفة من الأسئلة المكتوبة ليوجب عنها إجابات مكتوبة طلباً للسلامة من الخطأ والتحريف ، ورعاية لمركزه الدقيق ، وهو مركز لا يبيح له أن يتحدث عن الصلات بين مصر والعراق بلا تدبر ولا إيمان ، فقد رأيت غضب حين قرأت في إحدى الجرائد أنه سئل عن النظام الجديد في بلاده بعد الثورة الكهلانية وأنه أجاب بكيت وكيت ، فلما سأله عن سبب غضبه مع أن الجواب المنسوب إليه لا غبار عليه قال : لا يليق بمن يوفد لهمة علمية أن يتكلم عن شؤون نيابية وأريد أن أقول إن الدكتور الجمالي حار في الإجابة عن الأسئلة التي وجهتها إليه ، وكانت تلك الحيرة سبباً في أن تتأخر الإجابة أسابيع ، فلم يقدمها إلي إلا وهو يتأهب للرحيل

تطلب عليه الهداية ولكنه مزود بقوة الروح ، وفي رحابه نشأ
كثير من جنودنا الأبطال
والأخوة التي بيني وبين الدكتور الجمالي فرضت عليه أن
يرى مصر بعيني ، مصر التي لم يُخَلَقْ مثلها في البلاد ، مصر
التي ولد فيها موسى ، ونشأ بها عيسى ، وصاهاها محمد ، وهم
صفوة الأنبياء

لم أرى مصر شيئاً يجب إخفاؤه عن رجل من أرباب القلوب ؛
وإنما احتاجت مصر إلى الدفاع عن نفسها ، فإن يكون ذلك
إلا بفضل جنابة الجمال على الجليل
جمالك فائق والحسن ذنب لاهل الحسين في شرع القديس
فاشكواك من ظلاء طالت وتلك جنابة المجد اللباب
إن استباح السفهاء من أهل اليمن أن يتألوا مصر بسوء ،
فصيكون لهم من وراء الابني ألوان وصفوف من غضب صاحب
اللمزة والجبروت

مصر التي لم يهتف بمثلها شاعر ولا كاتب ولا خطيب ،
مصر التي لم يتفتح الأزهر في أرض أكرم من أرضها ولا أخصب ،
مصر التي لم يتخطر على ترمي غير تراها أمراب لا ترى مثلها
الديون في شرق ولا غرب

مصر الجميلة الثمالية ليس فيها ما يباب ، فمن حق أن أطلع
على خفاياها من يشاء ، فإن صح أن فيها ما يشوك ، فهو سواد
الخال في الخلد الأسيل

بهار غريبه اللطاف

البكاء محرّم على الرجال إلا في مقامين اثنين : مقام الشوق
إلى الله ، ومقام الحزن لفرق الأحباب . وللمقام الثاني صورة
لا يتجنى من أطيافها المزعجات إلا تدوينها على القرطاس ، فإن
الإنشاء كالبكاء يخفف ما تعاني للقلوب من لواعج وأحزان .
وكيف نعيش لو حرمنا الخطوة إلى القلم من وقت إلى وقت ،
وقد أقفرت الدنيا من للصديق الذي تنفض بين يديه ما في
سدورنا من أشجان وكروب ؟

والصورة الآتية من صور البكاء تستحق التسجيل ، فهي
واضحة الدلالة على أن الأخوة العربية قد انتقلت من حال للشرح
والتفسير إلى حال الدوق والإيمان . فإتلك الصورة من البكاء ؟
في الأيام الأخيرة لإقامة الدكتور الجمالي بالقاهرة جدت

إلى مبلغ لا أصل إليه إلا بعد أعوام طوال ، ثم أردت أن أطمئنه
قلت : ولكن لا موجب للجزع فقد تنفع اللؤلؤفات في الظفر
بالألقاب !

ومن المتظر أن يستوحش فاسل « بك » حين يُنزع منه
هذا اللقب بمد وصوله إلى بغداد ، ودنيا الألقاب إلى زوال !
الجواب المخروف

في الأسئلة التي وجهتها إلى الدكتور الجمالي سؤالٌ يقول :
ما هي الشخصيات التي ظفرت بإعجابكم ؟ وما الشرائع الأصيلة
لتلك الشخصيات ؟

وأجاب الدكتور الجمالي عن هذا السؤال بصفحة كاملة ،
ثم عاد نخلط بياضها بسوادها فلم أتبين منها غير أشباح ، وإن
كان تفضل فأبقى للعبارة الخاصة بأحد الرجال . وقد سأته عن
السبب في حذف هذا الجواب فاعتذر بأنه قد يرضه إلى محررات
وأجهدت عيني في تعرف تلك الأسماء فلم أهدئ إلا إلى
سمات خطية عرفت منها أسماء : السنهوري وغربال ومشرقة
وجوهر والتقيان وفهيم

وكان قبل ذلك حدثني عن إعجابك بالدكتور سليمان عزي
والأستاذ على يدوي

وللدكتور الجمالي الحق كل الحق في أن يسكت عمن عرف
في مصر من الرجال ، فلكل رجل في مصر خصائص تعجب من
يهمه للتحدث عنها بإيجاز أو إطباب . ورغني مصر بالرجال
لا يحتاج إلى بيان ، والذي يتصل بمصر وهو في مثل ذكاه
الدكتور الجمالي وإخلاصه لا يستطيع للنجاة من القسوتون بما
لرجالها من رجاحة للعقل ، ونفاذ للبصرة ، وقوة لليقين

أما إعجاب المصريين بالدكتور الجمالي فهو إعجاب صادق ،
وقد أطلعه على دقائق النهضة العلمية والأدبية والفنية
والاجتماعية . وتفردت أنا بإطلاعه على دقائق الحياة الشعبية ،
وذلك جانب يراه بعض الناس من المبتذلات وأراه من للطرائف ،
فإ في مصر بقعة إلا وهي مصدر وحى أو مبعث خيال

زرت مع الدكتور الجمالي أكثر الأحياء الوطنية ، الأحياء
التي نبت فيها أبؤنا وأجدادنا قبل أن يرفوا المدنية الغربية ،
الأحياء التي أوحث ما أوحث من فنون الرأي والمبقرية ، زرت
معه « حي الخليفة » الذي نشأ فيه مصطفي كامل ، وهو حي

كان يرى ناساً لا ينتظر أن يراهم في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم من أيام رمضان ، فكان يقول لمن يراه : غريب الطافكم ا غريب الطافكم ا

وتمت الأعبوبة حين رأى أقطاب وزارة المعارف يفيدون لتوديمه وهم رجال لا تسمح شواغلهم بأداء هذا الواجب في مثل هذه الأيام المثقلة بالتكاليف

وقد تأثر الدكتور الجمالي بهذا المنظر فكاد يبكي من جديد ، ثم صدّه حضور صاحب للفخامة نوري باشا للسعيد ، فقد أخذ يسألني عن صحة ليلى بمباراة لا تخلو من فكاهة ومزاح ودوي صفير للقطار فتعجّز المودعون ، وانخرط الدكتور الجمالي في البكاء ، البكاء الذي لا يجيده في مثل هذا الموقف غير كبار الرجال

وما الذي يمنع الدكتور الجمالي من البكاء لفراق القاهرة ، وقد عاش فيها شهرين بعين الحب وقلب الصديق ؟

لو كان الدكتور الجمالي من الثمراء ونظم في توديع القاهرة ألف قصيدة لكان تعبيره عن أساه أقل بياناً من تلك الدعوى للنبيلة وقد جاد بها قلب نبيل

الثقافة المصرية

حدثني الدكتور الجمالي قال : « سُئِلْتُ عن مسابقة للثقافة المصرية نحو عشر سنين ، بسبب التفات إلى الثقافة الإنجليزية ، ثم كانت هذه الزيارة فتحاً جديداً ، وقد اشترت من المؤلفات المصرية ما ملأ حقيقتين كبيرتين ، فحي التقديم لمصر أضيف إليه حب جديد ، كنت أحبها للأخوة العربية ، فصرت أحبها للأخوة العلمية ، وإعجابي بتقدم مصر العلمي جاوز ما كنت أقدر من للفروض »

ومع أنه زار مصر في أشهر العطلة الدراسية فقد عرف كيف يدرك ما عندنا من مذاهب الحياة للتعليمية ، بفضل صلته الوثيقة برجال التعليم ، وبفضل ما فطر عليه من حب الاستقصاء وليس معنى هذا أن مصر وصلت إلى ما لم يصل إليه أحد في العالمين ، ولكن ممتناه أن الرجل سُئِلَ بالمحاسن عن العيوب ، فلم تقع عيناه في مصر على شيء غير جميل

وهذه النظرة الودية هي أساس المعارف الصحيح ، والمعاون إلى الوحدة العربية فاتهم هذا الجانب ، وهو الابتداء بمخلق صلوات روحية وذوقية تصل للعرب بأخيه من طريق الحب والصفاء

شواغل منمتنى من الأتس بهذا الصديق للتالي ، وهي الشواغل التي تصعب افتتاح للعام الدراسي ، ومع ذلك عرفت أنه سينادر للقاهرة في عصر هذا اليوم (٤١/١٠/١)

وقبل للوعد المحدد لقيام للقطار بنحو خمسين دقيقة كنت في الفندق الذي نزل فيه لأعجبه إلى محطة باب الحديد ، ولكني لم أجدته هناك ، ثم حضر بعد لحظات ، فكانت بحبته : لطفك يادكتور ! وحدق في وجهي لحظة ثم قال : هل تعرف أني قضيت مساء الأتس وصباح اليوم في البكاء لفراق القاهرة ؟ فابتسمت وقلت : الجروح قصاص ، فن واجب للقاهرة أن تصنع بك بعض ما صنعت في بغداد ، وأنا بكيت لفراق بغداد حتى رحمني أهدائي ، فاشرب قطرة من الكأس الذي شربته حتى التئمة . واحترس من التزبد على المحبين !

ولم يقع في الوم إلا أن الدكتور الجمالي يلاطفني بالحديث عن محزنه لفراق القاهرة ، فهو من بلد له تقاليد في مراعاة الآداب الإخوانية ، ولكن لم ينكد تفارق للفندق في طريقنا إلى المحطة حتى غاب الرجل على وقاره ، وأخذت دموعه تبال خديه على نحو ما يصاب به التيسمون

ورأيت من الحزم أن أجهل ما يمانيه ، لثلا يزداد عناء إلى عناء ، فأخذت أشاغله بالسؤال عن معالي الدكتور ساي شوكت وسادة الأستاذ طه الراوي ، وانطلقت فسردت له عشرات من الأسماء التي أحبها في أرجاء العراق ، ولم أطو عنه إلا أسماء من صادقت من رجال الجيش ، فقد خشيت أن أسمع أن فيهم من قُتِلَ في الحرب التي دامت ثلاثين يوماً . وكان لي في الجيش للمراق أسدقاء لا يفدون بغير الأرواح ، كتب الله لهم العافية من مكاره للصروب في هذه الأيام !

ثم بلطنا محطة باب الحديد وقد جفت دموع الدكتور الجمالي ، فرأينا هنالك طوائف من الإخوان ينتظرون باسمين ، فسُرِّي عنه بأسرع من لمح البرق ، وأخذ يحاور ويناضل بمزجة لا تعرف للبكاء

وأراد الإخوان أن يصارحوه بمزهم لفراقه فأشرت إليهم أن يكفوا ، فسكتوا وقد فهموا أني أعرف من أمره ما لا يعرفون ؛ والمصري أقدر للناس على فهم خطرات للقلوب ولحات للميون وكان الدكتور الجمالي مع هذا مهدداً برجمة البكاء ، فقد

أسس وأسس

لم يبق إلا أن نذكر بعض ما دونه الدكتور الجمالي بخطه ،
مكتفين بالأهم ، لنضيق المجال

س - ما هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها المصري حين
يخدم العلم بالعراق ؟

ج - كل ما يزيد للمصري الذي يأتي لخدمة العراق هو
أن يشعر بأنه في بلاده وبين أهله وإخوانه ، ومتى شعر بأنه يخدم
أبناء قومه فلا أشك في أن عمله سيكون مثمراً أطيب الثمر .
وإني لأنصح لمن يشتغل بالتعليم في العراق أن يعتمد على البحث
في القضايا السياسية والأمور المذهبية ، فإذ دخلت هذه البحوث
في دور العلم إلا أفسدها

س - أترك مطمئناً إلى صحة القول بأن مصر صلة الوصل
بين الشرق والغرب ؟

ج - إن مصر خير مثال لبلد تمسك بشرفيته ثم غذاها
بالتجارتين الشرق والغرب ، فمصر هربية في روحها ، إسلامية في
تقاليدها ، وهي مع ذلك تأخذ من الغرب أساليبه العلمية ، وأنظمتها
الصناعية والزراعية والتجارية ، فهي بدرجة تصهر ثقافتى الشرق
والغرب ، وتزجواً أن تخرج منهما ثقافة موحدة لجاسن كليهما ،
وإذ ذلك تصبغ مصر ومن ورائها البلاد العربية صلة الوصل
بين الشرق والغرب حقاً

س - ما الذي يجب أن يُنقل من شمائل بغداد إلى القاهرة

ومن شمائل القاهرة إلى بغداد

ج - أحب أن نُنقل بعض شمائل القاهرة إلى بغداد ،
لا سيما ما يتعلق بتنظيم العمران وفتح الشوارع وتشجيرها
والإكثار من الميادين والحدائق العامة ، ولا أرى ما يمكن نقله
من بغداد إلى القاهرة

س - هل اتسع وقتك للنظر في الفروق بين المناهج المصرية

والمناهج العراقية ؟

ج - هناك فروق بين مناهج التعليم في مصر والعراق ،
وهذه الفروق ناتجة من أمرين : الأول أن العراق حديث في نظامه
التعليمي ، ولم تولد له مشاكل تاريخية بعد ، ففي وسعه أن يطبق
أحدث النظريات الفنية للتعليمية بدون أن تكون في الطريق

عقبات خلفها له الماضي . أما أنظمة التعليم في مصر فلها تاريخ
بعيد نسبياً . فلا يمكن الأخذ بما هو صالح من الجديد إلا بالتدرج .
والأمر الثاني هو أن العراق قد احتق للفكرة العربية منذ تكوينه
الجديد بقيادة المنفور له الملك فيصل الأول ، فهذه الفكرة متغلغلة
في كل برامج التعليم ، ولم تصل هذه الفكرة في مصر إلى صميم
التعليم بعد كما هو الحال في العراق

س - أنت زرت تركيا وكنت عن التعليم فيها تقريراً
مفصلاً ، فهل ترى وقد زرت مصر أننا قريبون أو بعيدون من
الأترك من الوجهة الثقافية ؟

ج - لا أستطيع أن أحدث عن الثقافة التركية اليوم ،

لأنى لم أتبع للتطورات الأخيرة في معارف تركيا منذ وفاة
المنفور له أتاتورك . أما الثقافة التركية كما عرفتها في سنة ١٩٣٧

فكانت تختلف عن الثقافة في مصر اختلافاً أساسياً وهي بعيدة
عنها كل البعد . أولاً لأن الأترك في ثقافتهم قطعوا صلتهم
بالماضي ووضعوا لأنفسهم أساساً جديدة واضحة ووجهت للثقافة

بموجبها ، فهم أخذوا كل ما راقهم من المبادئ الغربية وتركوا
للثقافة الشرقية وراهم . وثانياً لأن الانقلاب التركي جاء شاملاً

وسرياً ، بينما مصر تميز على الأساليب الديمقراطية التدرجية ،
فهى تبق الجيد من القديم وتضيف إليه الحديث ، ولذلك أرى

أن الشقة الثقافية قد بعدت بين البلاد العربية والبلاد التركية .
هذا ما بدأ لي سنة ١٩٣٧ ولا أعرف ما هو الوضع اليوم هناك

[انتهى ما اخترته من أجوبة الدكتور الجمالي]

أما بعد فقد فرغت من كتابة هذا المقال في لحظة قدرت فيها
أن الدكتور الجمالي لم يصل إلى الحدود المصرية ليجتازها إلى

فلسطين . فليكن مقالى هذا تحية ثانية أقدمها إلى الصديق الذي
ودع للقاهرة بدموع الوفاء ، وليتفضل فيذكر أن القاهرة

لا تنسى أحبابها أبداً ، ولو بمنت النار وقدم العهد
وإذا كان الدكتور الجمالي قد تلطف فدعاني لزيارة بغداد

مرة ثالثة فليعرف أنى ما فارقت بغداد ، ولا غاب عن عيني
عبيها الجميل

سيَسألُ قومٌ من زكى مبارك وجمعى مدفون بصحراء صحاء
فإن سألوا عنى فى مصر مرقدى وفوق ترى بغداد ترح أهوانى

زكى مبارك